بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس: 59 الأستاذ: سماحة العلامة الشيخ معين دقيق

الدرس: تفسير القرآن الكريم المبحث: سورة لقمان

التاريخ:27\04\2022 م كتبه: عبدالله ضيف الستري البحراني

وصل الكلام إلى قوله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَداً وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾.

هذه الآية المباركة هي خاتمة السورة، في هذه الآية المباركة الباري تبارك وتعالى أن علمه اختص بأمور لا يعلمها إلا هو تبارك وتعالى.

الربط السياقي: بعد أن تكلمنا في الآية السابقة عن أمر الله تعالى البشر بالتقوى والخشية، قام في هذه الآية وذكرهم بقيام الساعة، بعد أن قال تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ هذا المقطع الذي يثبت ما ذكرناه في الآية السابقة، فذكر تبارك وتعالى علمه بالأمور المذكورة في هذه الآية:

الأمر الأول: علمه بالساعة ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ والمقصود بالساعة يوم القيامة كما هو واضح أنها من أسماء يوم القيامة، وعلمه بقيام الساعة يختص به تبارك وتعالى كما تدل على ذلك لأكثر من آية، وهو من علم الغيب الذي اختصه الباري تبارك وتعالى بذاته المقدسة.

هذا العلم بالساعة مع خفائه على تمام البشر يعطينا فائدة تربوية أشير إليها في بعض الأخبار، العلم بأجل الإنسان، والعلم بقيام الساعة، والجهل بهما عن البشر، فيه الفائدة التربوية التالية: وهو أن الإنسان يبقى بين حالتي الخوف والرجاء، فيمكن أعمر إلى مئة سنة فيعطيني الرجاء، ويمكن أموت غداً فيعطيني الخوف، وبما أنك لا تدري متى تموت، فكن مطيعاً في كل الحالات، فهذه الفائدة تربوية تنجر أيضاً إلى الجهل بقيام الساعة.

المقطع الثاني في الآية: ﴿وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ﴾ أكثر الكتب التفسيرية التي طالعتها بنت على أن نزول الغيث هو اختصاص علم، أي: كما ينحصر علم الساعة به تبارك فينحصر علم نزول الغيث به أيضاً.

والحال أننا لو تأملنا في هذه الآية يتضح لنا أن هذا الأمر الثاني هو اختصاص قدرة لا اختصاص علم؛ لأنه ما قال: إن الله عنده علم الساعة وعلم نزول الغيث، بل قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ﴾ وهذا من عطف جملة فعلية على جملة اسمية، فهو من مختصاته تبارك وتعالى، لكنه اختصاص قدرة لا اختصاص علم.

نعم في بعض كتب تفسير ذكروا رواية ترتبط بشأن نزول هذه الآية، وأن أعرابياً جاء وسأل النبي الأعظم صلى الله عليه وآله متى تقوم الساعة؟ وسأله أنا زرعت زرعي والآن جف الماء فمتى ينزل المطر؟ لكن هذه الرواية لم تثبت عندنا، مروية عند العامة.

ظاهر الآية هذا الاختصاص هو اختصاص قدرة لاختصاص علم ﴿وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ﴾ والشاهد على ذلك أنه في المقطع الثالث كرر ويعلم، رجع إلى العلم.

المقطع الثالث: ﴿وَيَعْلَمُ ما فِي الْأَرْحامِ﴾ هذا المقطع تكرر في القرآن الكريم في أكثر من آية، ففي سورة آل عمران: ﴿هُوَ الَّذي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحامِ كَيْفَ يَشاءُ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزيزُ الْحَكيمُ﴾[1] و﴿هو﴾ سواء جعلناه ضمير فصل أو جعلناه مبتدأ هنا الجملة تدل على الحصر، أي: هو لا غيره. وفي سورة الرعد: ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ ما تَحْمِلُ كُلُّ أنثى وَما تَغيضُ الْأَرْحامُ وَما تَزْدادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدارٍ﴾[2] وفي سورة الحج: ﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ في رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْناكُمْ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحامِ ما نَشاءُ﴾[3].

هناك شبهة في زماننا –في زمان التطور العلمي– متداولة، وذكرت كثيراً، وهو أن علم ما في الأرحام بعد هذا التطور العلمي والطبي صار أمراً ميسوراً، فحينئذ لا يصدق على الله سبحانه وتعالى أن علم ما في الأرحام من مختصاته، بل الأطباء في المختبرات يعلمون ما في الأرحام ويعينون بأنه ذكر أو أنثى.

العلماء عادة لهم أجوبة متعددة في ذلك:

---

[1] آل عمران 6
[2] الرعد 8
[3] الحج 5

الجواب الأول: أن هناك فرقاً بين العلمين، علم الله يقيني لا يشوبه شك، وعلم الطب ظني يجتمع مع الشك.

لكن هذا الجواب كما تلاحظ وربما ينفع في بعض مراحل التطور العلمي، لكن في بعض المراحل الأخرى لا ينفع هذا الجواب.

الجواب الثاني: البعض الآخر قال: أن علم الله بما في الأرحام قبل أن تنعقد النطفة. بعبارة أخرى: علمه مطلق، يعلم ما في الأرحام قبل الانعقاد وحين الانعقاد وبعد الانعقاد، هذا العلم بمجموع مراحله الثلاث من مختصات الله تبارك وتعالى، وما يعلمه الأطباء ليس في هذه المراحل الثلاث بأجماعها.

إذا كنت قادر على بناء بيت وقادر على حفر بئر، ومن هو موجود في هذا المصلى ما بين قادر على الأول وبين ما بين قادر على الثاني، يصدق عليه أن القدرة على كليهما مختصة فيه، فالله سبحانه وتعالى علمه بما في الأرحام بهذه الآنات الثلاثة، ما قبل لانعقاد وحين الانعقاد وبعد الانعقاد، وعلم الأطباء لا يشمل ما قبل الانعقاد.

هذا الجواب الذي ذُكر في بعض الكتب ربما لا ينسجم مع آية البحث؛ لأن آية البحث تقول: ﴿وَيَعْلَمُ ما فِي الْأَرْحامِ﴾ ظاهرها أنه ما هو بالفعل في الأرحام، قبل انعقاد النطفة، وقبل اجتماع الرجل والمرأة لا يصدق هذا التعبير أنه عالم بما في الرحم، يصدق عليه أنه عالم بما سوف يقدر لهذا الرجل وتلك المرأة. فهذا التعبير ظاهر في الفعلية.

نعم، ربما في آيات أخرى، كـ ﴿هُوَ الَّذي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحام﴾[4] وطبعاً هذا اختصاص قدرة وليس اختصاص علم، لو فرضنا أنه قال: بما أنه قادر فإذن يعلم بما سوف يصور، هذا الجواب يأتي، أما في آية البحث لا يأتي هذا الجواب.

الجواب الثالث: ولعله الأولى، أن يقال: بأن تخصيص العلم بجنس ما في الرحم تخصيص بلا مخصص، الآية ما قالت ويعلم ما في الأرحام ذكراً أم أنثى، فقط ﴿وَيَعْلَمُ ما فِي الْأَرْحامِ﴾ بل الآية عبرت بـ﴿ما﴾ ولم تعبر بمن، أي: لم تعتبره شيئاً يتصف بصفات العقلاء، فالمقصود الاختصاص بالعلم المطلق بما

[4] آل عمران 6

في الرحم، بكل تفاصيله، يعرف شقاوته وسعادته، يعرف كونه ذكراً أم أنثى، يعرف أنه سوف يكون سليماً أم غير سليم، يعرف ما يقدر له في هذه الحياة الدنيا، فهو علم مطلق؛ لأن الآية لم تخصص بمعرفة الذكر والأنثى.

فبناء على ذلك حينئذ لا يتأتى هذا الإشكال، نعم يبقى الإشكال في سورة الرعد؛ لأن الآية في سورة الرعد قال: ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ ما تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثى وَما تَغيضُ الْأَرْحامُ وَما تَزْداد﴾[5] في قوله: ﴿تَغيضُ الْأَرْحامُ وَما تَزْداد﴾ يوجد تفسيران:

التفسير الأول: يرتبط بمدة الحمل، مرة مدة الحمل تنقص ومرة تزداد، أن هذه المرأة سوف تلد على ستة أشهر أو سوف تكمل تسعة عشر، هذا الباري سبحانه وتعالى يعلم ذلك.

التفسير الثاني: أن الباري سبحانه وتعالى يعلم بأمرين:

الأمر الأول: يعلم ما تحمل المرأة.

الأمر الثاني: يعلم ما تغيض الأرحام، أي: انقطاع الدم، وما تزداد، أي: ما تقذفه الأرحام من دم الحيض أو النفاس وما شابه ذلك.

على كلا التفسيرين هذه الآية أيضاً لا ربط لها بمعرفة جنس الذكر أو الأنثى، فلا ترد إشكال على هذا الوجه الثالث الذي ذكرناه.

فإذن إلى الآن في هذه المقاطع هناك اختصاص علم في موردين، علم الساعة وما في الأرحام، وهناك اختصاص قدرة وهو تنزيل الغيث.

فمن كان عالماً وقادراً بهذه الأمور التي تسألون عنها لا شك أن وعده يكون صادقاً، ثم بعد ذلك كأنه يلتفت إلى الإنسان، فيقول: ﴿وَما تَدْري نَفْسٌ ماذا تَكْسِبُ غَداً﴾ أثبت العلم والقدرة في المقاطع الثلاث في أمور في غاية الصعوبة، لا يعلمها أحد ولا يقدر عليها أحد، فجاء في الإنسان الأمور البسيطة

[5] الرعد 8

التي أنت أيها الإنسان تحتاج إليها، وليس أنه بعد مئة سنة أو عشرة آلاف سنة، بل غداً، أنت لا تعرف ما هي الأمور التي تكسبها سواء على المستوى المادي أم على المستوى المعنوي.

﴿وَما تَدْري نَفْسٌ ماذا تَكْسِبُ غَداً وَما تَدْري نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ تسألون عن الساعة التي علمها عند الله، أنت لا تعرف متى تموت، ولا في أي أرض تموت.

فهذه المقارنة بين علم الله وتعالى وقدرته، ونفي العلم والقدرة عن البشر والإنسان مشهد آخر تختتم به السورة؛ ليدعو الإنسان إلى أن يسلم أمره إلى الله، وأن لا يكون غافلاً، وليرجع ليؤكد على ما ذكرناه في الآية السابقة: ﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْماً لا يَجْزي والِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلا مَوْلُودٌ هُوَ جازٍ عَنْ والِدِهِ شَيْئاً﴾.

ثم يحصل تتميم للآية المباركة بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَليمٌ خَبير﴾ في هذه الآية المباركة الفرق بين والخبرة، العلم قد يجتمع مع العلم الإجمالي بالشيء، والخبرة إنما تكون داخلة إلى كنه الشيء وحقيقته، فذيل هذه الآية بعد حديثه عن العلم والقدرة بالتأكيد على أن الله سبحانه وتعالى ﴿عَليمٌ خَبير﴾.

واستعمل أدوات التأكيد لكون أكثر الناس وإن كانوا غير منكرين لذلك، لكنهم في مقام العمل يتصرفون كما لو كانوا منكرين، فينزل علمهم منزلة الإنكار، فناسب بأن يأتي بصيغة التأكيد ﴿إِنَّ اللَّهَ عَليمٌ خَبير﴾